العلوم عند العرب[*]

(الإشكالية القديمة في صورة جديدة)

[*] نشر بمجلة الرفقة العدد (5) 2003 ف .

دأبت الكتب التي تتناول بالدراسة موضوع العلوم العربية على تقديم هذه العلوم في صورة نمطية ، لا تكاد تختلف ، فهي تكتفي بالسرد التاريخي ، دون تحليل أو مقارنة . وهذا ليس سيئا في حد ذاته ، بل هو أمر على درجة كبيرة من الأهمية ، ولا يجوز إغفاله . وإنما أن تصبح العلوم عند العرب ، بكل فعاليتها وإنجازاتها وإبداعاتها ــ موضوعيا ومنهجيا ــ مجرد سرد تاريخي خارجي ، لا أكثر ولا أقل . فأن ذلك فيه إجحاف ، ليس لهذه العلوم فقط ، بل للتاريخ أيضاً . لان ما نجده في هذه الكتب ، هو مجرد خليط مشوش ، وأفكار متضاربة ، ونتائج مبتسرة ، واتهامات ، وردود على هذه الاتهامات ، باتهامات أخرى ، وهكذا . ويظل الخاسر الحقيقي ، هو هذه العلوم ذاتها .

فمن أولى النتائج الخاطئة ، المترتبة على هذا السرد التاريخي ، هو إن ما يقدم في هذا المجال ، لا يتعدى في حقيقته " في أغلب الأحيان " ، ان يكون مجرد آراء ومعتقدات خاصة ، وردود أفعال ، لاتهامات تخص موقف ، أو شكل هذه العلوم دون مضمونها وبعبارة أخرى ، نجد أن دراسة هذه العلوم ، لم تكن مقصودة في ذاتها ، أي محاولة معرفة أسسها ومنطلقاتها وتقنياتها ومضامينها . فهي مجرد كتابات تبريرية ، في المقام الأول ، حتى وان استندت

إلى شواهد ووثائق . لأنها قائمة أساساً ، على موقف الشخص نفسه ، من هذه الاتهامات أو الانتقادات .

وكنتيجة ثانية ، مترتبة على السرد التاريخي ، هي أن ما يصل إليه الباحث ، في تاريخ العلوم من أحكام ، هو في حقيقته مجرد صياغات عامة ، لا يمكن ، ولا يجوز الحكم عليها بالصدق أو بالكذب . فهذه الأحكام ، التي تبدو لنا في الغالب ، على أنها نتائج ، وأنها جاءت مؤيدة من بحوث تفصيلية معمقة . إلا أنها في الحقيقة ليست كذلك ، فهي لا تعدو ان تكون مواقف أو آراء أو عقائد الباحث ، وضعت في هيئة أحكام ونتائج ، غير مقطوع بصحتها أو صدقها ، وهذه نتيجة أخرى .

هذه النتيجة المشككة ، تضعنا أمام نقطة افتراق حاسمة ، سواء بالنسبة للذين يظهرون عبقرية العلوم العربية ، أو الذين ينكرون أية قيمة لهذه العلوم ــ وهذا تصنيف على أية حال غير محكم وغير دقيق ــ فعند الفريقين ، لم تقم النتائج على حجج أو أسانيد اختبارية دقيقة ، تستند إلى وقائع محددة وواضحة ، إنما جاءت نتيجة لقراءات سطحية للعلوم عند العرب ، خصوصاً ، وان الخلاف بينهما ينصب أساساً ، على معتقدات كل فريق . فأضحي الموقف ، ونحن ندرس تاريخ العلوم ، أننا لسنا بصدد دراستها حقاً ، إنما نحن بإزاء عقائد شخصية ، وآراء فردية ، غير مستندة إلى أسس أو منهج محدد .

لذلك جاءت أغلب هذه الكتب ، معبرة عن آراء ذاتية ، تستخدم المعلومات التاريخية لتأييد وجهة نظر الكاتب نفسه . وفي هذا إرغام ، غير مبرر ، للوقائع والأحداث العلمية والتاريخية .

كذلك ، من النتائج الخاطئة للسرد التاريخي ، للعلوم عند العرب ، هي تقديم صورة عامة ــ وهي غالباً غير دقيقة ــ عن إنجازات العلماء ، ومن ثم تصنيفهم في فئات ، هم في الحقيقة لا يمثلونها تمثيلاً صحيحاً . هذه الصورة ، وضعت في إطار براق ومبهر ، يرضينا ويعجبنا . إلا أنها ليست الصورة الحقيقية ، التي يمكن عن طريقها ، تقدير جهد وعبقرية العلماء العرب . فالصورة العامة ، تأتي دائما على حساب الأحداث الجزئية التفصيلية ، والتي هي أكثر قدرة ، على التعبير عن المبادئ والقواعد الأساسية . أي هي ، في الواقع ، أساس العلم وقوته . والتضحية بهذه الأحداث ، من أجل جمال أو اكتمال الصورة العامة ، على نحو يرضينا ، فيه إهدار ، شبه كامل ، لمقومات العلم وتستطيح لعبقرية وفاعلية العلماء .

إن تقديم العلوم عند العرب ، في صورة تاريخية فحسب ، حتى وان كانت هذه الصورة ، مزدانة بالألوان ، وتبدو لنا متناسقة ومتماسكة ومبهجة . أو كان الذين يقدمون هذه الصورة ، يحملون في أعماقهم ، مشاعر وأفكار بالغة الدفء والاعتزاز . الا ان تقديم العلوم عند العرب ، على هذه الصورة ، فيه إساءة ــ ربما غير

مقصودة ــ ليس للعلوم فقط ، بل للعلماء ، وللأجيال التي تتلقي هــذه المعلومات . إذ توارت المضامين الزاخرة بالعطاء ، وعلمــاء علــى درجة عالية من التميز ونفاذ بصيرة . كما اختزلت مناهج متفوقــة ، على حساب الصورة التاريخية . فخــرج العلــم العربــي ــ وفــق الصياغات التاريخية التقليدية على أنه ذو طــابع واحــد ، تبريــري في الأغلب ، دون النظر إلى الاختلافات الأساســية ، والحاســمة ، بين العلماء والمناهج التي يستخدمونها .

ولكن ، أليس من السهل ، أن ننظر إلى الأمر هكذا . أعني إحلال صورة عوضاً عن أخرى مع تقويم بعــض الهفــوات والأخطــاء . والواقع عن الأمر ليس هكذا تماماً . لأننا إن فعلنا ذلك ، فنحن نقــع في الأخطاء الفادحة ذاتها . وهي التي نحاول نقدها ، كمــا يجانبنــا الصواب إذا اعتقدنا ــ لأول وهلة ــ أن هذا التحليل . الذي نقوم به ، هو بهذه البساطة ، خصوصاً في ظل ثرات ضخم ، وآراء اكتسبت ، مع الوقت ، ما يشبه القداسة ، وسيطرت أحقاباً طويلاً . فما أيسر ــ والحالة هكذا ــ من تقديم الصورة المألوفة . ولا نحمل أخطاء تقــديم صورة جديدة ، تحتفي بالتفاصيل البينة والجلية ، وتطمح إلى تأسيس معرفي لقواعد العلم ، وليس مجرد صــياغة بيــان تبريــري للعلــم العربي . وان كان هذا لا يمنع في ذات الوقت ، من تقــديم مــساحة للدواعي والدوافع ، التي دفعت مؤرخي العلوم إلى تقديم العلم العربي

على النحو الذي نراه عندهم . ومن هذه الدوافع ، الانتقادات الحادة والمستفزة للعلم العربي . كذلك الرغبة في الدفاع عن الكيان ، والاعتزاز بالانتماء إليه . كل ذلك يمكن أن نتفهمه ونتعاطف معه . ولكن ليس إلى درجة الاعتقاد ، بأنها هي الأسباب الوحيدة لتقديم الصورة التقليدية ، وإغفال وتجاهل الأسباب الموضوعية ، الخاصة بالعلم والعلماء ، منهجاً وموضوعاً .

فإذا تقدمنا في تحليل هذه العلوم ، تحليلاً علمياً ، يقوم على أسس جديدة . فسوف نكتشف بأننا لا نطلب أكثر مما ينبغي ، إنما هو مطلب متواضع ، فنحن نسعى ، ببساطة ، إلى تحقيق هدف علمي محدد ، هو معرفة وتحديد أسس وبنية هذا العلم ، والمناهج التي استخدمها ، على نحو أكثر دقة وموضوعية ، دون النظر إلى الصورة التقليدية ، أو أى اعتبار آخر .

فإذا كان هذا الهدف البسيط ، قد يبدو للبعض ، بأنه ضئيل القيمة ، إلا أن هذا الحكم ينقصه الإنصاف ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، يصادر وعلى نحو قاطع ، الحق في بحث موضوعات هذا العلم بمناهج مختلفة ، يمكن أن تأتي ببيان صحيح وصادق . ويتطلب هذا المنهج الذي نسعى إليه ، في المقام الأول ، اللجوء إلى الوقائع والأدلة والوثائق والنصوص والتحقيق منها ، تم ترتيبها وجمعها برباط منطقي ثم وضعها في صورة نتائج مستخلصة تكون

هي إجابات لأسئلة علمية ملحة ، وهذا يقتضي منا مراعاة العلاقات البينية داخل العلم الواحد أو مجموعة علوم مختلفة . مع إبراز تميز كل علم ، بطريقة تتفق أو تختلف عن علم أو علوم أخرى . فالنتائج هنا ، ليست مجرد تجميع صوري لوقائع جزئية بل اعتبار أن الوقائع والنصوص هي ، في الأساس ، الأكثر تعبيراً ودقة عن الروابط ، وإدراك خطوات واتجاهات المناهج المستخدمة ، من قبل العلماء العرب . وهذه أجدى وانفع ، من البحث التاريخي ، الذي تقدمه الكتب التقليدية عن العلوم عند العرب .

ان ما نحاول القيام به هو الوصول إلى إجابات مرضية ومقنعة عن العلم والعلماء العرب بعيداً عن الصورة التقليدية المألوفة والمعتادة .. خصوصاً ، وان هذه الدراسة وفي أساس أولى ، تعتقد بقيمة العلم العربي وفق مرحلته والظروف التي أحيطت به ، كما ترى ان النجاحات التي حققها العلماء العرب ، لا يمكن أن تكون على هذه الصورة من عدم النبوغ . حتى وان ذكرت هذه الكتب ان هذا العالم أو ذاك ، تفوق في ابتكاره على من قبله ومن بعده . دون النظر إلى الإنجاز في ذاته وتركيبته والأسس التي أقيم عليها . ودراسة مفهوم هذا الإنجاز ، في ضوء فهم متكامل لصياغة العلم في تلك الفترة . مع دراسة الإنجازات الأخرى المتوافقة زمنياً

وموضوعياً مع هذا الانجاز . أي بعبارة أكثر مباشرة ، ما الذي ابتكره هذا العالم ؟ وما الذي جعل هذا الإنجاز أمراً ممكنا ؟ .

وهنا لسنا في حاجة إلى التأكيد على أن العلم العربي كما تقدمه كتب تاريخ العلوم لا يسيء إلى تاريخ العلوم وحده ، بل يسيء إلى العلم وإلى العلماء أنفسهم وحضارتهم . فتقديم العلوم العربية على هذه الصورة ، فيه إساءة بالغة لكل الأطراف . فالعالم لا يبدع إنجازه خبط عشواء ، ولا الإنجاز يتحقق فجاءة كنبات شيطاني في ذهن العالم . فهذا رسم أسطوري للعلم ، وفي الوقت ذاته فهو ليس جزء من العلم . إنما الإنجاز لكي يتبلور ويتحقق في ذهن العالم ، لابد من شروط بالغة التعقيد والدقة والوضوح . والإنجاز نفسه ، هو نتيجة مرهقة لسلسة طويلة من الإجراءات والمقارنات والتحليلات والمراجعات . مع وجود ذهنية قادرة على الاستيعاب ومتوثبة لتحقيق الإنجاز . إضافة إلى أسس أو نظرية أو نظريات ما ورائية تسنده أو تقف خلفه أو بمصطلح " توماس كون " أن يكون هناك نموذج أو نماذج إرشادية ، يتمثلها ويبدع من خلالها وتكون حاضرة في إنجازه[1] .

---

[1] انظر كتاب توماس كون بنية الثورات العلمية " ترجمة شوقي جلال . سلسلة عالم المعرفة عدد 168 في هذا الكتاب يشرح كون فكرته عن النموذج الارشادى .

وعلى الرغم من الصورة المضطربة والزائفة للعلم العربي الذي تقدمه كتب تاريخ العلوم عند العرب . إلا أنني لا أرغب في أن أظهر بمظهر عدم الاكتراث نحوها ، أي لا يمكن تجاهلها بصورة كاملة . كما ينبغي عليّ أن اعترف هنا بأمرين : أولهما : أن موضوع العلوم عند العرب من الموضوعات الغامضة والشائكة لارتباطها بعدة أفكار ومبادئ ومجالات . وثانيهما : هو أنني كنت أحد الذي كانوا يرون صورة العالم العربي من خارجه . أي كبناء قائم فحسب ، وأن أهميته تكمن في النظر إليه في ذاته ككل . وهذا انعكس بدوره على الحجج ، التي قامت دفاعاً عنه ضد الاتهامات العديدة سواء أكانت صحيحة أو زائفة ، فهي اتهامات في اغلب الأحيان ــ غير جدية . الا أنها من الكثرة إلى درجة ان نجحت في إبعاد وإخفاء وطمس تفاصيل هذه العلوم . وهو أمر يستدعي الاهتمام والانتباه . ومنذ هذه اللحظة ، أعني من السؤال عن تفاصيل العلوم ، ومناهجها المختلفة وجدت انه لا يمكن الحصول على إجابة دقيقة ومقنعة من الكتب التاريخية للعلوم . وهذا منحنى فرصة ثمينة في الوصول إلى أنني لست في حاجة إلى تبرير أو تفنيذ حجج وادلة المؤيدين والمعارضين على حد سواء بقدر حاجتي إلى تحليل مضمون العلم ذاته .

لذلك تغير السؤال ، من سؤال عن أهمية العلم ومكانة العلماء إلى السؤال عن ماهية العلم وخصائص المنهج . أعني السؤال عن بنية العلم وأسس مناهج العلماء ، خصوصاً ونحن ندرك ان العلماء بما هم أفراد لا يستطيعون إقامة العلم . لإن العلم عمل جماعي تتكامل فيه الظروف الموضوعية والذاتية في بيئة مناسبة . فالعالم حتى وأن استطاع اختراق الأفاق بإنجازاته ، فستظل هذه الإنجازات ــ ان كانت ممكنة ــ صغيرة ولا قيمة لها ، الا بالقدر الذي تتوافر فيه جملة من الشروط . والعوامل التي يتم عن طريقها إبراز هذه الإنجازات ووضعها في مكانها الصحيح . وهذا لا يعني أن العالم لا قيمة له ولا دور . كلا إنما هناك مساحات خاصة للإبداع تفسح للعالم بقدر حجم عبقريته واستيعابه لروح حضارته . وهذا الجزء الخاص هو الذي يمكن للعالم من خلاله ان يفاجئ الجميع بإبداعه ، أقول أن هذا الإبداع وان كان شخصياً ــ كلياً أو جزئيا فهو تعبير عن منهج العلم في حضارته وخصائصها . فهو إذن رمز شديد الإيحاء لحضارته .

من هذا المنطق يتم استبعاد الأسئلة الغامضة بل التي لا معنى لها . والإبقاء على أسئلة محددة وواضحة بخصوص العلم ومناهجه ودور العلماء . وان يكون العمل ضمن إطار مفهوم العلم كما كان سائداً أو كما فهمه وعرفه العلماء العرب في تلك الفترات من تاريخ الحضارة العربية .

هنا يجب أن أنوه إلى أن ما أقوم به ليس عملاً فريداً من أي نوع ، ولا هو بالرأي الحاسم القاطع غير القابل للمناقشة أو الدحض . كلا بل على العكس تماماً فأنا أعرف مقدماً بأن هذا المنهج واتجاهه في دراسة العلوم عند العرب سيظل موقفاً غير مقطوع به ، بصفة نهائية . بل هو قابل للمزيد من الدقة والإبانة . وهذا ليس اعتذاراً مسبقاً أتقدم به عن هذا العمل لاننى اعتقد بصحته وفي ذات الوقت بتميزه في تقديم صورة ، أن لم تكن صحيحة ، فهي جديدة ومختلفة ، تدرس العلوم العربية بطريقة لم نعتادها في كتب تاريخ العلوم عند العرب .

ولإيضاح ذلك علينا أن نسأل أولاً عن الصورة التقليدية لتاريخ العلوم عند العرب . فما هي هذه الصورة ؟ .

تتفق أغلب كتب تاريخ العلوم عند العرب[1] في أن أساس النهضة العلمية عند المسلمين تبدأ مع بداية الالتقاء بين الفكر الإسلامي وبين التيارات الثقافية والعلمية في الحضارات القديمة ، خصوصاً الحضارة اليونانية التي شكلت معيناً لا ينضب للعلم العربي . مما جعل هناك إمكانيات هائلة للامتزاج والتفاعل بينهما مما يسر تبلور العلم العربي ، وظهور العديد من المجالات العلمية وبروز أعداد كبيرة

---

[1] انظر مثلاً : قدرى حافظ طوقان " العلوم عند العرب " . دار اقرأ ــ عمان . الاردن . دون تاريخ : محمد عبدالرحمن مرحبا " المرجع في تاريخ العلوم عند العرب " دار الفيحاء بيروت . 1978 : عمر فروخ " تاريخ العلوم عند العرب " دار العلم للملايين بيروت 1984 .

من نوابغ العلماء الذين تمكنوا في مرات قليلة من التفوق على العلماء السابقين عليهم ، كما اثروا في علماء العصور الوسطي والحديثة الأوروبية . بل وفي مسار العلم الغربي الحديث بمنهجه التجريبي الذي هو ابتكار إسلامي . كدليل على ذلك يذكرون العديد من العلماء الذين اعتمدوا على التجربة كابن حيان والرازى وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم . لهذا ــ كما تقول كتب تاريخ العلوم ــ يجب الاعتراف بأهمية العلماء العرب وقيمة العلم العربي .

ورغم هذا الاختزال الذي قدمته هنا لصورة العلم في كتب تاريخ العلوم لأنها معروضة بشكل أوفي في تلك الكتب ، وثانياً لاننى سوف استعرضها بنوع من التفصيل عند مناقشة العديد من النقاط . فمثلاً علينا هنا ملاحظة النتيجة التي تحرص هذه الكتب على بيانها . وهي القيمة الكبيرة للعلم العربي ، وأثره الواضح في العلوم والمناهج الحديثة . هذه النتيجة مبهرة ومثيرة لأنها صحيحة رغم مقدماتها الخاطئة بل المدمرة حتى بالنسبة للنتيجة التي جاءت لتأييدها . أعني أن ما قدمته هذه الكتب عن وقائع وأفاق العلم العربي ومناهجه لا تعطي هذه النتيجة . فهي مقدمات ووقائع ومناهج مضطربة ومشوشة وغير قائمة على أسس صحيحة ولا دراسات علمية تمكن من عقد الصلات بصورة سليمة بين الأسس والوقائع والمنهج ، وربطها في نسق أو أنساق متماسكة . فبدأت لنا صورة استخلاص

قياسي مبتذل ــ وهي عادة تعلمناها من أرسطو ــ تقول بما أن العلم العربي له قيمة وحقق نجاحات كبيرة ، لذلك فإن كل علم من العلــوم العربية لابد أن يكون كذلك[1] . اما كيف حدث ذلك سواء في العلــوم كلها أو في كل علم على حدة فلا نكاد نجد إجابة واحدة مقنعة .

لفهم ومعرفة العلم العربي وبنيته ومناهجه على نحــو صــحيح ، علينا أن نبدأ من البداية ، وهي ترتبط بظهور الإسلام الذي أوجــد ــ دون شك ، مناخا علمياً خصباً بفضل ما يحمله من مبادئ وتصورات وتشريعات . ومواجهته للأديان والثقافات السابقة . وكان يسعى سعياً حثيثا إلى تصحيح الأمور التــي رأي أنهــا حرّفــت فــي الأديــان السابقة . كما كان عليه خصوصاً في انتــشاره الــسريع والواســع ، مواجهة ثقافات وعادات وأخلاق وديانات شعوب هذه المنــاطق ذات التراث الزاخر . هذه المواجهة ، وهذا الاحتكــاك اتــاح للمــسلمين الإطلاع على ثقافات هذه الشعوب . ومن ثم الاستفادة من إنجــازاتهم المختلفة حيث تمكنوا من الإضافة إلى رصيدهم العلمي مــادة غنيــة ومتنوعة .

---

[1] انظر ما سبق ، اظر كذلك :ــ

ــ حميد موراني وعبدالحليم منتصر " قراءات في تاريخ العلوم عند العرب " مؤسسة دار الكتب جامعة الموصل 1974 .

ــ حكمت نجيب عبدالرحمن " دراسات في تاريخ العلوم عند العرب " جامعة الموصل 1977 .

ــ ماهر عبدالقادر وحسان حلاق " تاريخ العلوم عند العرب " مكتب كريدية إخوان بيروت 1991 .

الا ان ذلك لا يعني مطلقاً بأن النهضة العلمية الإسلامية ما كانت لتقوم لو لم يحتك المسلمون بالتراث السابق . فالحقيقة الساطعة هي أن إطلاع المسلمين على منجزات الحضارات السابقة ــ وان أمدهم بمادة ثمينة ــ إلا أن ذلك لم يحدث الا بعد ان تكونت الهوية الإسلامية واشتد عود الإسلام واتضحت معالمه وأهدافه ، لانه ببساطة لم يكن في مقدور المسلمين فهم واستيعاب التراث السابق ما لم يكونوا في البدء قد استوعبوا دينهم وخصائصه المختلفة . وان يكونوا قد امتلكوا القدرة على المقارنة والتحليل لاتجاهات الحضارات القديمة المتعددة ، وان يكونوا قادرين على مراجعته من خلال النموذج الإسلامي ، حيث نجدهم قد تدارسوه بدقة وحرص بالغين ، ودونما حساسية أو تفضيل بين المصادر المختلفة . طالما كانت هذه المصادر تقدم لهم معارف وأفكار جديدة .

فالسمة البارزة هنا ، هي أن المسلمين سعوا إلى العلم والمعرفة ، أينما وجدوها بدون تحديد . وقد تفوقوا في استيعاب التراث السابق إلى درجة انصهار وذوبان معظم هذا التراث في النموذج الإسلامي الجديد . وربما هذا الذي جعل البعض مثلاً يصرخ نائحا بأن المسلمين شوهوا تراث اليونان . ولم يكن في إمكان هؤلاء ، ان يفهموا أن المسلمين قرأوا اليونان في أغلب الأحيان ــ قراءة إسلامية . فالأمر لا يتعلق بالتزييف أو التشويه . وما يدل على ذلك

هو أن بعض المسلمين الذين تابعوا الفكر اليوناني أعطوا لليونان في بعض الأحيان أفاقاً ما كانت لتخطر على عقول أعظم فلاسفتهم.

لذلك يمكننا القول ــ بكثير من الثقة ــ أن الترجمة كانت أبعد من كونها مجرد نقل وتعريب ، إنما هي حركة شاملة ونشطة ومستهدفة ، وان كان هذا لا يمنع من القول ، بأن الترجمة ساعدت فقي تحديد مفهوم العلم العربي ، سلباً وإيجاباً ، سواء عند اليونان أو عند غيرهم من شعوب العالم القديم . وان كان اليونان هم الأكثر حضروا .

الآن في وسعنا أن نتقدم خطوة أخرى ، وننظر إلى العلم العربي ونحاول تقديمه في صورة تخطيطية عامة . حيث نلاحظ أن هناك عدة تيارات أو اتجاهات داخل هذا العلم وفي كل فرع منه . بل إن كل اتجاه ينقسم بدوره إلى عدة روافد أخرى متفرعة منه ، وتلتقي عنده في الأسس والمنهج ويمكن وضعه كالآتي :ــ

1 . اتجاه تابع اليونان متابعة كاملة . أو كما يقال كحذو النعل بالنعل . واعتبار أن الحقيقة العلمية هي حقيقة يونانية . هذا الاتجاه هو الأكثر شهرة والأوفر حظا من الدراسات والتمجيد .

2 . اتجاه تابع اليونان . الا أنه يري أن هناك بعض القصور والتقصير في العلم اليوناني فحاول تدارك ذلك . هذا الاتجاه كما يبدو يقر بقيمة العلم اليوناني ، الا أنه قرأ هذا العلم قراءة

إسلامية . من ذلك محاولات التوفيق بين العلم اليوناني والدين الإسلامي . كذلك محاولات توسيع مجالات العلم اليوناني بجوانب إسلامية حسب هذا الاتجاه على الاتجاه اليوناني الخالص . ونال نقداً مريراً الذي انسحب أيضاً على الاتجاه الأول دون تفريق بينهما .

3 . اتجاه رفض العلم اليوناني موضوعاً ومنهجاً . وأقام العلم على أسس ومناهج جديدة تختلف مع أسس اليونان ، وتتفق مع روح الحضارة الإسلامية . فإذا كان هذا الاتجاه هو الأكثر التزاماً بالشروط الإسلامية ، الا أنه الأكثر بعداً من مجالات الدراسة رغم اصالته . ويضم علماء الكلام باختلافهم ، وعلماء وفلاسفة وصوفية .

في ضوء هذه القراءة التحليلية للعلوم عند العرب ، لا نتمكن فقط من إعادة ترتيب هذه العلوم ، إنما نستطيع فهم وإدراك ماهية العلم وبنيته وأنساقه . كما يتيح لنا ــ وعلى نحو ميسر ــ تقدير مساهماته ومعرفة اتجاهات العلماء ومناهجهم وتصنيفهم ، وفقاً لمبادئهم العلمية ، والإطار المعرفي عندهم . وبالتأكد فإن هذا يجنبنا الوقوع في الكثير من الأخطاء الفادحة ، ويصحح الصورة التي سيطرت على أذهاننا عن العلوم عند العرب .

فلم يعد في الامكان ، ولا من المقبول أن نضع علماء الاتجاه المتابع لليونان مع الفئة نفسها التي نضع فيها علماء الاتجاه الرافض للعلم اليوناني ، فمثلاً . لا نستطيع في مجال الحديث عن التجريب

في العلم العربي ، ان نضع الرازي وابن سينا مع ابن سهل الطبـــرى وجابر بن حيان . حيث توجد فـــوارق اساســـية ومنهجيـــة حاســـمة في التجربة عند الفريقين ، وهو بالضبط الفرق بين كتابي " الحاوى " و" القانون " للرازى وإبن سينا وبين كتـــاب " فـــردوس الحكمـــة " للطبرى .

كما لم يعد من المستساغ تقديم السؤال التقليدي الخالد " مـــا هـــو موقف العلم الإسلامي " ؟ اذ سيبدو سؤالاً لا مبـــرر لـــه ولا معنـــي إنما يجب ان يكون السؤال عن ما هو العلم الإسلامي وبنيته وتقنياته ؟ وعندما يتحقق لنا ذلك ، أعنى عندما نتمكن من الإجابة ونعرف ماهية وبينة ومنهج هذا العلم ، فإن ذلك يعنى أننا نستطيع أن نصل وببساطة كاملة إلى إجابة أي سؤال يخص هذا العلم ومواقفه .

ولكي تكون الإجابة أكثر دقـــة وتحديـــدا ، فأننـــا لا نقـــدم فقـــط عرضاً تفصيليا لمنجزات العرب في العلوم ، بـــل ســـنخطو خطـــوة إلى الامام أو قل خطوة نحو الأساس المبدئي الذي تستند عليـــه هـــذه العلوم . واقصد بها النظريـــات التـــي تـــسند النظريـــات العلميـــة ، وهي ما يعرف بالنظريات الماورائية التي تقف خلف وتحت العلـــم . وهذه ليست خاصة بالعلوم العربية وحدها بـــل نجـــدها فـــي العلـــم المعاصر ونادى بها العديد من فلاسفة العلم .

فهناك أسس أولية أو مبادئ عامة يقف عليهـا العلـم وتبـرره . وان كانت هذه الأسس في ذاتها ليست من صميم العلم ولا موضـوعاً من موضوعاته ، وهي تكاد تشبه الحالة التي أطلق عليهـا " رينيـه تاتون " مصطلح " البداهة الدينية "[1] . الا أنها هنـا أكثـر تحديـدا وتفصيلاً من هذه البداهة .

من ذلك مثلاً عند اليونان ، هو الاعتقاد بنهائية المكان والزمان ، وان العالم ومادته قديمان وثنائية الجسم والـنفس ، والعـالم مكـون من عناصر مادية قديمة اختلفوا فـي عـددها ، ولكنهـا لا تتعـدي الأربعة : هي الماء الهواء والنار والتراب . وهذه العناصـر أيـضاً قديمة ولكل عنصر منها خصائص ذاتية لا تنفك عنه ، وهي الفاعلـة في الأجسام .

فإذا ما أردنا معرفة تأثير هذه الأفكار والآراء على العلـم فأننـا سنجد ذلك واضحاً في كل فروع العلم التي عرفها اليونان ، كالطبيعة والطب وغيرهما . فنظرية " ابنادوقليس " وهي الصياغة المتكاملـة عددياً لعناصر اليونان الأربعة ، حيث أخذ بها في مجـال الطـب ــ مثلاً ــ ابقراط ووضع مقابلها أو على امتدادها نظرية الطبائع الأربعة (الرطوبة والبرودة والحرارة واليبوسة) .

---

[1] رينيه تاتون " تاريخ العلوم العام ــ القديم والوسيط " ترجمة على مقلد . مؤسسة الجامعية بيـروت 1988 ص 118 .

ثم وجدت هذه الأفكار دفعات قوية ومهمة من فيلسوف بدرجة أرسطو خصوصاً في تفسيره لتركيب الأشياء الطبيعية وإضافته العلل الأربعة (مادية وصورية وفاعلة وغائية) . وكذلك فكرة الوسط .

تم جاء " جالينوس " ووضع نظرية الأخلاط أو الأمزجة ، وهي أيضاً أربعة . وبذلك استكملت نظرية الطب اليوناني سواء على المستوى الطبي . أو المستوى الفلسفي ، فهؤلاء العلماء الفلاسفة يتفقون على أن الكون أو الطبيعة والأجسام بما فيها جسم الإنسان هي في التحليل النهائي خليط من هذه العناصر الأربعة مع الأقرار باختلاف نسب هذه العناصر في جسن من الأجسام جامدة أو حية . فيصبح لكل جسم طبعه ومزاجه . فما الأعضاء إلا أجسام وقد ولدت من أخلاط . كما أن الأخلاط نفسها متولدة من العناصر الأربعة .

مثل هذه النظرية فيها من الأفكار الأولية والمبادئ أكثر مما تبدو لنا أو ما تقوله وحتى في الأفكار الطبية لا نجدها هكذا تماماً ، فالعناصر والأخلاط ترتبط بمادتها القديمة وهي خاضعة للمصير أو الحتمية الصارمة التي تقف خلف كل شيء عندهم بما فيها الآلهة . ومبادئ العلم ، أي علم أنما هو العلم بالكليات ومعرفتها تتحقق عن طريق القياس . والمثير للدهشة هنا حقاً هو أن ابن سينا ــ على سبيل المثال ــ كان على وعي تام بأنه أمام نظريات فلسفية في

الطب وليس نظريات أو آراء طبية ، الا أنه ــ وكل الاتجاه المتابع للآراء اليونانية ــ تابعوا الآراء الفلسفية اليونانية . ولم تشفع لهم محاولتهم توسيع هذه الآراء بإدخال التجريب فيها ، لأنهم في الأساس يرون أن العلم هو معرفة مبادئ الكليات . كما أن المنهج هو المنهج اليوناني القياسي . لذلك ظلت التجربة عند هذا الاتجاه هي مجرد توسيع للعلم اليوناني . أي هي غير أصلية وفي الامكان التخلي عنها دون أحداث أي خلل أو تناقض بل ربما العكس هو الصحيح ، إذ ان وجود التجربة عند هذا الاتجاه فيه تناقض وهو التناقض ما بين منهجين ، القياس والاستقراء ، واستخدام احدهما في حقل أو ميدان الأخر فيه إضرار منطقي ومنهجي بالأخر ، وتناقضات ومشاكل لا حد لها . مما يؤدي في التحليل النهائي إلى سقوطهما معا .

أما التيار أو الاتجاه الذي يستمد أصوله ومبادئه ومواقفه من داخل الحضارة الإسلامية ويتمثل خصائصها ، وهو في ذلك يرفض وبصورة قاطعة العلم اليوناني موضوعاً ومنهجاً ؛ إذ قدم نظريات مختلفة عن العالم ومكوناته ، وبنية العلم ومناهجه . فلم يعد الأمر يتعلق بالعناصر القديمة التي تفعل بطبعها تحت حتمية قاسية لا مهرب منها . إذ تبرز الإرادة ، فالعالم مخلوق وبإرادة خالقه الذي خلقه في الزمان والمكان الذي شاء وان الزمان والمكان لا نهائيان . بالإضافة إلى عدم الفصل بين العقل والمادة بصورة قاطعة ولا الجسم

والروح ، ولا الإيمان والعمل . ولا الدنيا والأخرى . فكل طـــرف ـــ ان شيئنا ـــ هو مقدمة أو نتيجة لا تنفصل عن الطرف الأخرى .

قدم علماء الكلام العديد من النظريات مخالفة لنظريات العناصـــر والاخلاط والأمزجة مثل نظريتهم فـــي الجـــزء الـــذي لا يتجـــزأ . هذا الجزء هو أصغر وحدات الكون ومخلوق بـــإرادة الله ســـبحانه ، وان الأجسام بكافة أنواعها هي هذه الجزئيات ، أما بالنـــسبة لفاعليـــة الأجسام فهناك نظريتان أحدهما : " نظرية التوليد " عنـــد المعتزلـــة والأخرى : نظرية " الاقتران في الوجود " وكانت من النتائج الحاسمة في هذا الصدد ، القول بالعادة والتكرار كبديل للحتميـــة والـــضرورة الشاملة وفكرة الطبائع .

تمثل علماء هذا التيار هذه المبادئ ، فنجد ـــ مثلاً ـــ ابن ســـهل الطبرى وابن النفيس في الطب ، وابن حيان في الكيمياء .. وهكـــذا في بقية فروع العلم كالفيزياء والفلك والجغرافيا ، بـــل نجـــد ذلـــك ، حتى في فروع علمية كلية التجريد كالرياضيات ، حيث نجد التفريـــق بين الارثماطيقا واللوجستكا . او علـــم العـــدد النظـــري والعملـــي ، ونظريات الأرقام والصفر والكسور العشرية والجبر والهندسة العملية والتحليلية والمثلثات واللوغاريتمـــات ، ونقـــدهم الرائـــع لمـــصادرة المتوازيات عن طريق برهان الخلف وغير ذلك من أعمال وأفكار .

والحقيقة ، ان من إغراض هذا التحليل هو ان يعطينا المقدرة على التوجه الصحيح دون أحكام مسبقة ومكررة إلى حد الابتذال .. فمن ذلك مثلاً يقال عادة أن الرازي وابن سينا مارسا الطب النفسي ، ويدللون على ذلك بأمثلة محددة جداً يعتبرونها دليلاً قاطعاً على ذلك . والحقيقة ان الرازي وابن سينا وان باشرا ومارسا هذه الإعمال الا انهما تناولا النفس من جانب فلسفي ، وهو ما يتعلق بقوي النفس وأنواعها ومصادرها . وهما في ذلك لا يختلفان من حيث المنهج والموضوع عن أي فيلسوف يوناني كأفلاطون أو أرسطو درس النفس فلسفيا وهذه الدراسة لا تمت بصلة إلى علم النفس .

كما أن هناك بعض الكتب التي تحاول أن تؤسس لعلم نفس إسلامي وسارت على هذا المنوال ، وهي بذلك ترتكب الأخطاء ذاتها دون دراسة حقيقية وصحيحة أو إعمال فكر أو حتى دون التفاتة بسيطة إلى تراث ضخم وهائل تناول النفس وأمراضها وآفاتها ومشاكلها بشكل تفصيلي وعلاجي يستند إلى أسس ومبادئ إسلامية ؛ واقصد به التصوف الإسلامي . فكل الكتب التي تتناول مجالات علم النفس تخطئ على نحو مباشر حين تهمل الآراء التي قدمها الصوفية سواء أكانت عملية أو نظرية لان أي دراسة من هذا القبيل لا تتجاوز كثيراً أعمال وأفكار الصوفية الإسلامية وهذا ما لم نجده في تاريخ العلوم ولا في الكتب التي تدرس علم النفس الإسلامي أو هكذا تريد

اقناعنا . فدراسة التراث الصوفي من الجانب العلمي سوف يمنحنا القدرة على رؤية وتحديد معالم النفس الإنسانية عند المسلمين ، ومن ثم التنظير للأفكار الجيدة والمثمرة واستبعاد غيرها من الأفكار التي لا تتلاءم مع العلم .

خلاصة ما أحاول القيام به واسعي إليه هو أن هذا التحليل سيظهر لنا العديد من الاتجاهات والتيارات العلمية عند المسلمين . كما يبين لنا ان العلم اليوناني أو النموذج اليوناني في الفكر الإسلامي لا يمثل الا اتجاهاً أو تياراً من التيارات الكثيرة والمتدفقة في الحضارة الإسلامية . كما أن هذا التحليل لا يبعدنا عن الصورة التقليدية النمطية للعلم الإسلامي فقط ، بل يحاول إيجاد طريقة تمكننا من وضع تصنيفات جديدة ، واقرب على الصحة والصدق عن العلم العربي وبنيته ومكانته ، وسوف يترتب على ذلك ترتب أذهاننا عن العلم والعلماء العرب ترتيبا يقوم أساساً على دراسة أعمال هؤلاء العلماء ونظرياتهم وأفكارهم ومناهجهم ، بالإضافة إلى الأسس والمبادئ التي يقف عليها العلم والعلماء مما يجنبنا الوقوع في الكثير من الأخطاء .

أقول : إذا كانت الغاية القصوى هي الوصول إلى تأطير العلم العربي على نحو سليم ، الا أننا سنكتفي ــ الأن على الأقل ــ بتصحيح الصورة القديمة وإزالة الالتباسات والغموض ، والخلط

المشوش للعلم والعلماء ورفع التناقضات عن الموضوعات والمناهج والتي ربما قدمت قديماً بدافع النية الحسنة .. الا أننا نعرف ان النيات الحسنة ربما تقودنا إلى ارتكاب أخطاء مدمرة ومميتة لا تغتفر .

فإذا كنا لا نملك اليقين بين ايدينا ، ولا نستطيع الزعم بأن هذا العمل يقدم حلا جذرياً ومتكاملاً ، ويعطي صورة صحيحة عن العلوم عند العرب الا أنه يظل محاولة جادة لإعادة قراءة تاريخ العلوم عند العرب بطريقة تليق بالعلوم وبالعلماء العرب وتليق بنا أيضاً ...

المراجع

1 . رينيه تاتون " تاريخ العلوم العام ــ القديم والوسيط " ترجمة على مقلد . مؤسسة الجامعية بيروت 1988 ص 118 .

2 . توماس كون بنية الثورات العلمية " ترجمة شوقي جــلال . سلسلة عالم المعرفة عدد 168 الكويت .

3 . قدرى حافظ طوقان " العلوم عند العــرب " . دار اقــرأ ــ عمان . الاردن . دون تاريخ .

4 . محمد عبدالرحمن مرحبا " المرجع في تاريخ العلــوم عنــد العرب " دار الفيحاء بيروت . 1978 .

5 . عمر فروخ " تاريخ العلوم عند العرب " دار العلم للملايــين بيروت 1984 .

6 . حميد موراني وعبدالحليم منتصر " قراءات في تاريخ العلوم عند العرب " مؤسسة دار الكتب جامعة الموصل 1974 .

7 . حكمت نجيب عبدالرحمن " دراسات في تاريخ العلــوم عنــد العرب " جامعة الموصل 1977 .

8 . ماهر عبدالقادر وحسان حلاق " تاريخ العلوم عند العــرب " مكتب كريدية إخوان بيروت 1991 .